كلمة منسّق النّدوة

عقدت وحدة البحث في المناهج التّأويليّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، من جامعة صفاقس، بالجمهوريّة التّونسيّة، ندوتها العلميّة الدّوليّة الأولى بعنوان **سيميائيّة الخطاب** يومي 6-7 مارس 2007. وقد دعت لهذا الغرض نخبة من الباحثين في المجال من داخل تونس وخارجها. وكان من بين هؤلاء الأستاذ سعيد بنكراد صديق الوحدة والكليّة –وقد عهدناه في مثل هذه المحافل العلميّة متميّزا– فاقترحت عليه نشر وقائع هذه النّدوة في عدد خاصّ من مجلّة **علامات** المغربيّة التي يشرف على إدارتها وتفضّل مشكوراً بقبول ذلك.

ويتنزّل هذا التّعاون في نطاق رغبة متبادلة في الشّراكة العلميّة بين هياكل البحث في الجامعة التّونسيّة ونظيراتها المغاربيّة. وإنّني أغنم هذه المناسبة لأتوجّه إلى الأستاذ سعيد بنكراد بجزيل الشّكر لحرصه على تلبية الدّعوة التي وجّهتها إليه **وحدة البحث في المناهج التّأويليّة** لحضور أشغال النّدوة ولما قدّمه للحاضرين من إضافة معرفيّة، ولما سيقدّمه لقارئي المجلّة من إضافة معرفيّة مماثلة. وقد سعيت إلى تحقيق هذا النّشر في عدد خاصّ من مجلّة **علامات** المغربيّة بالذّات تتويجا لمجهود بُذل صلب الوحدة المذكورة من أجل إنجاح ندوة علميّة نحت منحى سيميائيّا تأويليّا خالصا.

والحقيقة أنّ صلتي بمجلّة علامات ومديرها المسؤول ليست حديثة العهد وإنّما تعود فاتحة التّعاون بيننا إلى سنة 1998 يوم نشرت بها مقالاً أوّل حول التّأويل السّيميائيّ قدّمته في ندوة استراتيجيّة التّلقّي بمدينة "إربد" الأردنيّة في السّنة ذاتها. وقد كان هذا البحث منعرجاً في توجّهي المعرفيّ إذ سعيت إلى تطوير أعمالي الأسلوبيّة ضمن منظومة سيميائيّة تأويليّة، وذلك بوصلها بأفق فلسفيّ ونقدٍ وجوديٍّ أنطولوجيّ. ذا هو المسلك الذي انطلقت منه في تطوير رؤيتي الأسلوبيّة وأنا لا أنفكّ أرسّخه في وحدة البحث صحبة ثلّة من الباحثين المؤمنين بالتّوجّه ذاته.

وإنّي أرى من المناسب– في هذا التّقديم العاجل– أن أفيد القارئ الكريم بتوجّه الوحدة المعرفيّ من خلال وثيقة أسميناها صلب الوحدة بالميثاق العلميّ الذي هو مرتكز نشاطنا. وممّا جاء فيه أنّ:

« انبثاق المنهج الأسلوبيّ في تحليل النّصوص يُعتبر لحظة ولادة مفصليّة جاءت لتضفي على النّقد الأدبيّ لبوسا علميّا أو مقاربا للعلم وتخرجه من ظلمة الارتسام والتّقدير المعياريّ. ورغم ما للمنهج الأسلوبيّ من فوائد معرفيّة، فإنه كان لعقدين من الزّمن تقريبا مثار جدل إذ هو يقف –باعتباره منهجا شكلانيّا– على طرفي نقيض مع المناهج ذات البعد المضمونيّ، كالمنهج التّاريخيّ والمنهج النّفسانيّ والمنهج الاجتماعيّ وما شابه ذلك.

ولكنّنا نعتبر أن المقاربة الأسلوبيّة تُغْبَنُ حقّها إذا ما فُهمت من جهة بعدها الشّكليّ، إذ هي مقاربة قادرة –من حيث جوهرها الداخليّ وأداؤها الذّاتيّ– على الإنفتاح على مختلف المجالات المعرفيّة بفضل قابليّتها للتّأويل السّيميائيّ. وفي هذا المستوى من النّظر تنعقد الصّلة الوثيقة بين النّصّ–بنية شكلية– وتأويله –بنية معرفيّة– عبر سيميائه –بنية منهجيّة– بما يضمن التّلاقح الطّبيعيّ بين الأسلوب الذي هو ظاهر شكليّ في الأصل، وغايته الخِطابيّة المؤثّرة في صياغة الكون، وذلك بوساطة العلامة السيميائيّة.

إنّنا بهذا التّصوّر نهدف إلى وضع حدّ لهذا التّقسيم الثّنائيّ الفاصل بين البنية والمقصد لأنّه تقسيم يتغاضى كلّ طرف فيه عن الطّرف الآخر تغاضيا يتسبّب لكلّ منهما في قصور ذاتيّ. فلا المناهج المضمونيّة تستطيع أن تقيم أودها بذاتها بمعزل عن الأبنية المشتغلة سيميائيّا، ولا هذه الأبنية بقادرة على الحياة إن لم تشتغل سيميائيّا في سياق صيرانها إلى رؤية ناشئة في الكون محوّرة له.

وعلى هذا الأساس، نعتزم أن نستعين على أداء هذه المقاربة بالتّداولية بما هي منهج يرفض النّظر إلى النّشاط الكلاميّ نظرة شكليّة جوفاء، فنحن نقدّر هذا النشاط من جهة تنزّله السّياقيّ. ثم إنّنا نعتزم تعميق النّظر في الظّاهرة السّيميائيّة من حيث جوهرها النّظريّ أوّلا، فهذا جزء بدئيّ في العمل، ومن جهة إجراءاتها التّطبيقيّة على نصوص مختلفة متنوّعة المصادر والمشارب. وطبيعيّ أن يؤول بنا ذلك إلى تجسير العلاقة مع معارف محايثة للظّاهرة النّصّيّة من قبيل المعرفة الفلسفيّة –في المقام الأوّل– والمعرفة النّفسانيّة والمعرفة السّوسيولوجيّة إلى غير ذلك من الروافد الفكريّة التي قد تفيدنا في دراسة الظّاهرة النّصّيّة.

نقول ذلك لأنّنا ندرك أنّ كلّ هذه المكوّنات تبقى أساسيّة لنتفهّم النّصّ في سياق أرضية من النّقد الوجوديّ. ومما يعلّل عنايتنا بالرّافد الفلسفيّ خاصّة أنّ لحظة الخلق الأدبيّ والفكريّ شبيهة بلحظة الخلق الفلسفيّ من جهة كون كلتيهما تنحت موقفا في الوجود ومنه، مع ملاحظة

الفرق الإجرائيّ بينهما. فالأولى ترسم ما يجبّ المنشئ أن يكون عليه الكون، فيما تسجّل الثّانية ما هو كائن فيه وتعلّله.

يقف مشروعنا إذن في نقطة التقاء بين البنية والرّؤية، ولا نسعى في ذلك إلى ردّ الاعتبار إلى الأسلوب لأنه –في تقديرنا– ما فقده يوما، ولا هو قادر على فقده، لأنّ للأسلوب جوهرا يصونه من التّلاشي ويمكّنه من التّزاوج المغني مع المناهج الأخرى كالتّأويل والسّيمياء، تزاوجا يرفع الغبن الملحوظ في التفرّد، ويستعيض عنه بثراء ملحوظ في التعدّد. وهو مشروع يقف كذلك في نقطة التقاء بين التّنظير والإجراء. فلا يهمّنا الأوّل في حدّ ذاته، إنّما نحن نستدعيه بقدر ما يخدم النّصّ، فهو المنطلق المحدّد للمنهج النظريّ أوّلا وأخيرا.

ونختم هذه الورقة العلميّة بأن نقول إن المناهج النّقديّة تراوحت منذ مطلع القرن العشرين بين ما هو شكلانيّ بحت وما هو مضمونيّ بحت. وشهدت في ما بينها توتّرا بيّنا، ولكنّ التّأويل السّيميائيّ يمثّل –في نظرنا– حلقة فصل موحِّدة بين الطّرفين. وبذلك تنفتح للباحث أبواب تنقيب هرمنطيقيّ تأخذ في الحسبان البنية والأداة والمقصد، لا سيّما أنّ المناهج تسير –على وجه العموم– نحو ضرب من الجدل التّأليفيّ، مستشرفة ما أصبح يصطلح عليه بالمنهج المعرفيّ « Méthode cognitive ».

والسّؤال المطروح هو لِمَ كان هذا الموضوع تحديداً مجال اهتمامنا في النّدوة؟ وما علاقة السّيميائيّة بالخطاب؟

لقد تخيّرت وحدة البحث في المناهج التّأويليّة(MEtint)«**سيميائيّة الخطاب**» موضوعاً لندوتها العلميّة الدّوليّة الأولى إذ الخطاب لا يمكن أن تتحقّق جدواه إلاّ بالتّنقيب عن دلالاته الخفيّة انطلاقاً من أبنيته السّيميائيّة. فالخطاب –بما هو رؤية إلى الكون– حلقة واصلة بين العلامة يبتنيها الباثّ ومقصدها الخفيّ يقتنصه المتقبِّل.

وليس من شكّ في أنّ مجال التّأويل مفتوحٌ إلى غير حدّ، انفتاحَه على سائر أشكال الخطاب في الاختصاصات المتعدّدة. ولكنّ تدبّر الخطاب يبقى ضرباً من الوهم ما لم يخضع لتأصيل سياقيّ عن طريق ما يسمّيه «شارل بورس» بـــ«العادة التّأويليّة».

ومن الرّهانات المعقودة في هذه النّدوة تحديد بعض المصطلحات الدّائرة في ك التّأول ورصد الجوانب التّفكيكيّة في العمليّة التّأويليّة –بمفهوم جينيالوجيا الكتابة الحفريّة عند «ميشال فوكو»– من تقدير للخطاب التّأويليّ شططاً ونقصاً، ومن تنزّل للتّأويل بين الذّاتيّة والموضوعيّة، ومن تساؤل

عن الأبعاد الوظيفيّة لتأويل الخطاب، لا سيّما أنّ السّيميائيّة تلوح في الظاهر سيميائيّات تتحالف ولكنّها عبر المدارس والأحقاب تتخالف. وهذا ما يجعل متقبِّل الخطاب –أيًّا تكن طبيعة هذا الخطاب وأيًّا يكن مصدره– مركز العمليّة الخطابيّة ومنتهاها، أي محور الاستقطاب تلقّياً وتلاقياً.

إنّ السّيميائيّة نهجُ نظرٍ في العلامة لا من حيث هي بل من حيث اندراجها ضمن نسق ثقافيّ. فنحن – شئنا ذلك أم أبينا– مسوّرون بالعلامات من كلّ جانب، تعيش بيننا، تراقبنا ونراقبها، ولكنّها إذ تتخايل أمامنا وتوهمنا بأداء دلالتها، فإنّها لا تكاد تفعل حتّى تتأبّى علينا. ومن هنا، كان من الحصافة العلميّة أن يتتبّع الباحث العلامة دالّة ومستدلاّ بها حتّى يفهم نظام وجودها وطرائق اشتغالها ومقاصد ما وظّفت له من عمل.

لقد ارتبطت السيئميائيّة في ندوتنا بالخطاب ذلك لأنّ وراء كلّ علامة خطابا، وإن لم تستو العلامات أثرا وتأثيرا فلأنّها مشحونة من الناحية الخطابيّة شحنا مختلفا ومتفاوتا من علامة إلى أخرى. ولا يقتصر الخطاب الذي نحن إليه بسبيل على مجال الأدب ذلك لأنّ كلّ أنماط العلامات – على اختلاف انتمائها المعرفيّ– تشتغل خطابا نكاد نستثني من ذلك العلامة الطبيعيّة كحركة الحواسّ، فهذه لا تُحلّل علاميّا إلاّ من جهة رصد علاقة مدركها بها، ومن جهة انتمائها الثّقافيّ.

ولعلّ هذا ما يفتح باب ندوتنا على جملة من المعارف فيحضر التأويل والمنهج الظّواهريّ مثلما تحضر المعارف الأخرى، ابستيميّة كانت أو أنطولوجيّة أو أسطوريّة أو سوسيولوجيّة أو جغرافيّة أو تاريخيّة. ولهذا السّبب وغيره بدا موضوع النّدوة من الأهميّة بمكان، إذ هو يستدعي تعميق النّظر فيه وتنويع السّبل إليه، مبتغانا من ذلك إجلاء ما ينطوي عليه الموضوع من قضايا فكريّة ومنهجيّة وفنيّة وما يؤسّسه في الدّرس السيميائيّ المعاصر من مبادئ نظريّة يُستنار بها. ونحن نسعى من وراء القصد إلى رصد مفهوم تجريديّ للعلامة الموحِّدة والموحَّدة ينطبق على المعارف المتباينة في عَرَضِها، المتواصلة في جوهرها. ومقصد التحليل السيميائيّ هو ربطها بمصدرها الأنطولوجيّ الأصليّ يرجعها سيرتها الأولى.

وإذا كانت البحوث تجزيئيّة فإنّنا نروم من ورائها أن نجمع خصائص السّيميائيّات المتخالفة في منظومة ملامحها متحالفة. أمّا الوقوف عند الخصائص الفرعيّة لكلّ سيميائيّة في مجالها دون تجريدها تأليفيّا فقسمة ضيزى. لذلك دعونا ثلّة من الأساتذة والباحثين الكرام ليسهموا –كلاّ من موقعه– في هذا البناء المعرفيّ الذي نروم تأسيسه. وإنّنا على يقين من أنّهم اجتهدوا قدر ما وسعهم ذلك في سبيل إنجاز ما طمحت إليه الورقة العلميّة. فإذا رمت لسؤلك جوابا لا ينَبّئك بذلك مثل خبيرٍ.

وتتزّلت البحوث التي نحن إليها بسبيل ضمن مدارات الاهتمام التالية:

-المحور الأوّل: البناء المفهوميّ لمصطلحات " الخطاب" و"السّيمياء" و"التّأويل".
-المحور الثّاني: السّيرورة التّأويليّة ذات الصّلة بالجانب الإجرائيّ التّفكيكيّ الملحوظ في العمليّة التّأويليّة.
-المحور الثّالث: الصّيرورة التّأويليّة بما هي رصد لمختلف أوجه التّأويل لدى المتلقّي.

وأودّ في الختام أن أشير إلى أنّ من بين المداخلات ثلاثاً وردت في الأصل باللّسان الفرنسيّ. وإذ تعذّر إدراجها على حالها فقد تفضّل الأستاذ سعيد بنكراد بتأمين عمليّة التّعريب حرصاً منه على نشر وقائع الملتقى كاملة. فله منّي على ذلك التجلّة والإكبار.

ونأمل، بعد هذا، أن تكون مجلّة علامات ووحدة البحث في المناهج التّأويليّة قد أسهمتا معاً في خدمة النّقد الأدبيّ العربيّ وفتحتا فيه بعض مسالكَ يترسّمها من يشاركنا مثل هاجسنا.

محمّد بن عيّاد

رئيس وحدة البحث في المناهج التّأويليّة منسّق النّدوة.

كلية الآداب- صفاقس